

2011

الحروب الأهلية من منظور السيرة النبوية

Majed Darwich

Jinan University, majeddarwich@gmail.com

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan>



Part of the [Islamic Studies Commons](#)

Recommended Citation

Darwich, Majed (2011) "الحروب الأهلية من منظور السيرة النبوية," *Al Jinan الجنان*: Vol. 1 , Article 2.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan/vol1/iss1/2>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Al Jinan الجنان by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

د. ماجد الدرويش الطرابلسي الحنفي^(١)

الحروب الأهلية من منظور السيرة النبوية

الحمد لله رب العالمين المنعم على عباده بالأمن والأمان.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا رسول الله سيد ولد عدنان، وعلى آله وأصحابه بدور كل زمان، وبعد:

لا يخفى على باحث ما خالط الكثير من المفاهيم والقيم الدينية من دَخَنٍ أدى إلى تشويهها، وعطل فوائدها، وتسبب بمشكلات غلبت على حياة الناس، فقلبت الأمن خوفاً، والاطمئنان قلقاً، والخلاف جريمة.

ومن هذه المفاهيم والقيم: (الجهاد)، حيث اختلط فيه الشرعيُّ بحبِّ الانتقام والثأر، وبالاعتداء على حياة الناس وأموالهم، فكانت النتيجة دماءً تسفك في الطرقات، وموتا يطارد الناس في شوارعهم وبيوتهم، وكأننا نعيش تلك المرحلة من علامات الساعة التي نقلها لنا أبوهريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قَتَلَ ولا المقتول فيم قُتِلَ». وما أظن أحداً ممن أراد الله تعالى به خيراً ففقهه في دينه إلا ويدرك أن مثل هذه الأفعال تضرُّ في دين الله، وقد تكون باباً للصدِّ عن دين الله تعالى، كما أخبر الله تعالى عن عباده المؤمنين في دعائهم: ﴿ولا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾.. فمثل هذه الأفعال المشينة تنفر منها الطباع السليمة، ناهيك عن أن المتربصين يفرحون بها لاستغلالها ضد الإسلام.

وهذا لا يستغرب، فالقرآن الكريم أخبرنا عن ألوانٍ من الكيد تخفى على أولي الأبواب، من مثل

١ - أستاذ الحديث النبوي الشريف وعلومه في جامعة الجنان

قضية مسجد ضرار، فلولا أن الله تعالى أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم بشأنه لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فيه وافتتحه.. وبذلك يكتسب شرعيته. فمع أن عنوان هذا العمل إسلامي؛ وهو المسجد الذي يُعبد فيه رب العزة سبحانه؛ إلا أن الذين أقاموه أرادوا جعله مركز تجمع لمن حارب الله ورسوله، تعمية على المؤمنين، وإمعانا في حرب الإسلام والمسلمين. وبالتالي فلا يُستغرب اليوم أن توجد عناوين دينية كبيرة، وتكون حقيقتها كحقيقة مسجد ضرار، وعليه فلا بد من ضابط نفرّق به بين الحقّ والباطل، لأنه لا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والضابط في ذلك برأيي: هو السلوك العملي لهذه العناوين، فبقدر ما يكون هذا السلوك مستقيما على الجادة، يكون العنوان وأصحابه صادقين في انتسابهم وسلوكهم. وبقدر ما يكون هذا السلوك منحرفا عن الصراط الواضح الجلي، يكون صاحبه غير معبر عن حقيقة الدين، ولا يُسمح له أن ينطق باسمه، بل ربما كان مُغررا به من قِبَل أمثال منشئي مسجد ضرار، وما أكثرهم في كل زمان ومكان. فالعبرة ليست بالمظاهر والمسميات، وإنما بالحقائق والمعاملات.

بعد هذه المقدمة أريد أن أؤكد على مفهوم، وأن أعالج مشكلة..

أما المفهوم فهو أن مشيئة الله سبحانه قضت أن يكون الناس ملّا وفرقا وأما شتى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُ لَوْنٌ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ. وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾. قال العلماء: أي، خلقهم لأجل الخلاف.

ثم بيّن الحكمة من هذا الاختلاف، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. فكانت الحكمة من الاختلاف والتنوع هي أن يتعارف الناس، وهذا يستلزم الحوار وأدب الخلاف والاحترام المتبادل بين أصحاب الثقافات المختلفة الذين يتعارفون فيما بينهم، والأهم من ذلك: يستلزم الإنصاف، فلا يكون الخلاف سببا للافتراء والتقاذف بالتهم.

ولضبط عملية التعارف بين المختلفين شرع الله سبحانه أحكام التعامل مع المخالفين وآدابه: سواء كان الاختلاف بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين غيرهم من بني البشر.

ويزداد هذا التأكيد إذا كان المختلفون يعيشون في بلد واحد، ذلك أن أمن البلد مقدّم على كل شيء، والمنازعة التي توصل إلى الاقتتال تواجه بشدة وقسوة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَقِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، فهذه الآية فيها إشارة؛ قد ترتقي إلى مرتبة البيان؛ إلى حرمة الحروب الداخلية في البلد الواحد، وأن أمن البلد

الذي يعيش فيه المسلمون مقدّم على كل خلاف ونزاع.. وهذه هي المشكلة التي أريد أن أعالجها. ودليلنا على ذلك جملة من المواقف والتوجيهات لصاحب السيرة العطرة عليه الصلاة والسلام، سأكتفي بدراسة مثالين فقط: الأول في مكة المكرمة زمن الاستضعاف الذي كان يشكل فيه المسلمون أقلية. والثاني في المدينة المنورة زمن الغلبة والظهور حيث كان يشكل فيه المسلمون الأغلبية.

في مكة

الانطلاقة ستكون من قول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُوا أَيَدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ﴾.

هذه الآية من سورة النساء، رقم (٧٧)، وهي سورة مدنية، وهذا يعني أنها نزلت بعد الهجرة، على التعريف المختار للقرآن المدني، وبالتحديد في المدينة كما قال حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وقيل في سبب نزولها ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عباس: أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة - وقد اشتد الأذى بهم يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن أنفسهم - فقالوا: يا نبي الله، كنّا في عزة ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أذلة؟، قال - صلى الله عليه وسلم - : «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»، فلما حوّل الله إلى المدينة، أمره بالقتال فكفّوا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُوا أَيَدِيكُمْ...﴾.

ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره، وقال: ورواه النسائي والحاكم وابن مردويه، من قول السدي: لم يكن عليهم - أي في مكة - إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما فرض عليهم القتال - أي في المدينة - ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت. اهـ.

هذا ما أورده الحافظ ابن كثير من أسباب نزول، وهناك سبب آخر: قيل إنها نزلت في يهود، وهو أمر مستبعد لأمر:

١ - لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾. ومعلوم أن يهود ليس لهم حظ في الآخرة، وهذا خطاب وجه إلى مؤمنين يرجون الآخرة.

٢- من منهج الحافظ ابن كثير في تفسيره أنه يقدم ابتداءً أصح الأقوال فيما تعددت فيه التفسيرات، وقد قال رحمه الله في تفسير هذه الآية ما يأتي: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النُصب - أي الأنصبه المقدرة -، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، أشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً كما يُقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار ومع هذا، لما أمروا بما كانوا يودونه، جزع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأيم النساء». انتهى.

هذا الكلام التحليلي لقراءة النص مقروناً بزمه وسبب نزوله مهم جداً لأنه يعطينا مفتاحاً للبحث عن العلل التي تصلح أصلاً يُقاس عليه في كل زمان ومكان. والحقيقة أن هذا أصل من أصول التفسير للنص القرآني أو النص النبوي، وهو ما لفت إلى مخاطرة الجهل به سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عندما استفسره أمير المؤمنين الملهم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن أسباب افتراق هذه الأمة، والحال أن كتابها واحد ونبئها واحد؟! فقال ترجمان القرآن رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن القرآن نزل فينا وكُنّا نعلم فيم نزل، وسيأتي يوم على الناس يقرءون القرآن ولا يعلمون فيم نزل، فيكون لكل واحد منهم رأي، فإن كان ذلك اختلفوا، وإذا اختلفوا اقتتلوا. على ما جاء في سنن سعيد ابن منصور.

فاذا عُدنا إلى تحليل كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله، نستطيع أن نخرج بنتائج منها:

١- أن بعض الصحابة - وليس كلهم - عندما طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الإذن بالقتال في مكة كان الدافع الثأر لأنفسهم من طغيان قريش عليهم. وهذا يتماشى مع طبيعة الحياة القبلية التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام، وهم أصلاً حديثو عهد بإسلام، وما زالت عندهم بقايا مما شَبَّوا عليه، ويظهر هذا المعنى، قول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ومن رافقه من أصحابه للنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث أنف الذكر: «كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أدلة»؟!.

إنّ نفس العربي تأبى الذلة والمهانة، بل كانت الحرب لتتشب بين القبائل لأقل من ذلك، وهذا ما

دفع الحافظ ابن كثير رحمه الله إلى القول : «وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتموا من أعدائهم». غير أن الله تعالى يريد منهم أن يتخلصوا نهائياً من هذه النزعة القبلية، ويرتقوا بتصرفاتهم إلى مستوى العالمية التي تنظر إلى الأمر نظرة شاملة لا مجتزأة. وهذا يعني أن الصبر في فترة كهذه هو الذي يحقق النصر والظفر، وينقل المسلمين من حالة الضيق إلى حالة السعة والفرج. والله أعلم. مع العلم أن القوم فيهم أمثال: عمر بن الخطاب، وما أدراك ما عمر. وحمزة بن عبد المطلب -صائد الأسود- والزبير بن العوام، أول من شهر سيفاً في سبيل الله، وعلي بن أبي طالب، فتى قریش. وفيهم من أمثال أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، من كبار تجار مكة وأسيادها المقدمين. فأمثال هؤلاء ليس من السهل أن يسكتوا على طغيان من قد لا يدانوهم شرفاً ونسباً، وإن ساووهم ولكن حتماً لا يفوقونهم. فلا بد أن يكون السكوت إذن لأمر أعظم وأكبر من مجرد التأثر للنفس. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الجهاد أمرٌ خطير شأنه، مرير قراره، فلا بد أن يكون الدافع إلى زهق الأنفس والأموال أمراً يفوق مجرد الاعتبارات الشخصية ليتخطاها إلى اعتبارات دعوية ترتبط بالهدف الأساس ألا وهو عبادة الله تعالى...

٢- نفهم من كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله أنه عندما تغير الواقع المعاش من تضيق وضغط في مكة، إلى سعة ورغد في العيش في المدينة، تغيرت نظرة البعض إلى القتال ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾. وهذا - والله أعلم - من أعظم الأسباب التي قد تكون وراء عدم الإذن في القتال بمكة. لأن النفس مجبولة على رد الفعل والتأثر للذات ممّن ظلمها. ولذلك وجد الاندفاع للقتال في مكة في ظل ظروف القهر والضغط. وهذا انصياع وراء إرادة النفس أكثر منه اندفاعاً وراء حكم الله سبحانه. أما في المدينة حيث بدلت الأرض غير الأرض وعوّضت الدور والأموال وصار للمهاجرين موطنٌ قدم وتجارة وارتاحت النفوس من أجواء الضغط والتضييق، وتغيرت وسائل الصراع، وصار المسلمون في مجتمع آخر منفصل عن مجتمع مكة، مالت النفس إلى المحافظة على المكتسبات الجديدة، فترى الحافظ ابن كثير يغوص في أعماق نفوس المخاطبين في تلك الآيات ويقول: «لم يؤمر - أي النبي صلى الله عليه وسلم - بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم - أي للمهاجرين - دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودّونه، جزع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً». وهذا يعطينا فكرة واضحة أنه قد يعلن أحدٌ ما حالة الجهاد في سبيل الله تعالى، بينما ينطلق مدفوعاً بحب التأثر من النظام الذي طغى عليه وظلمه وأخذ ماله بغير حق. ولعل هذا المنطلق لا يصلح دافعاً للجهاد، وإنما الذي يصلح أن يكون منطلقاً هو مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا

تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿١﴾. فالجهاد يكون من أجل استخلاص المستضعفين من المؤمنين من أيدي الظالمين، لا من أجل الثأر للنفس. وهذا يحتاج إلى أركان، أهمها: الأرض التي تنطلق منها لتجميع هؤلاء المستضعفين الذين استخلصوا من أيدي الظالمين. والأهم من ذلك القدرة عليه. ونلاحظ هذا في قول الحافظ ابن كثير رحمه الله مبرراً عدم الإذن بالقتال في مكة بأنه لأسباب كثيرة، منها: «قِلَّةُ عددهم بالنسبة إلى عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، أشرف بقاع الأرض». وما لا شك فيه أن مكة أشرف بقاع الأرض، وأنها بلد حرام، ولكن حرمة المؤمن أشد عند الله تعالى حتى من الكعبة نفسها، ولذلك أحلها الله تعالى لنبيه عام الفتح، وقد وجدنا في القرآن الكريم ما يثبت أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الزمان والمكان، في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾. الآية. إذن يبقى عندنا أن السبب الأساس أنهم كانوا في بلدهم، وأنه لو أذن لهم بالقتال لدارت حرب أهلية لا تَبْقَى ولا تذر، والقوم مدفوعون بالعصبية التي لم تؤثر فيها ابتداء العقيدة الجديدة تأثيراً كبيراً. فهؤلاء قوم النبي صلى الله عليه وسلم لم يتخلوا عنه وقت الحصار على كثرهم وشركهم، وهؤلاء بنو تميم، اجتمعوا فوق رأس أبي بكر الصديق عندما أُوذِيَ بالضرب حتى كادت روحه تزهق، وهم يتوعدون قريشاً إن مات صاحبهم، وهذا العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم يخوف قريشاً من بطشة بني غفار عندما تعرّضوا بالضرب لأبي ذر رضي الله عنه.

فهذه كلها أسباب، والله أعلم، قد تشعل حرباً أهلية تطيش معها العقول، وتذهب برجال الدعوة، وتنتهي هذه العقيدة في مهدها. فما الذي سيحصله رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل ذلك؟! بل ما الذي سيحصله الدين الجديد؟: بينما وجدنا أن سياسة الصبر وضبط النفس قد آتت ثمارها. ويؤكد هذا المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة يوم رأى الضغط يشتد على أصحابه، خوفاً من ردات فعل غير محسوبة تخلط الأمور، وخوفاً من أن يؤدي الاحتكاك اليومي إلى حرب قبلية جديدة لا مصلحة للدعوة فيها على الإطلاق. ونحن لو قرأنا ما ذكره الأخباريون من تعليل للهجرة إلى الحبشة نجدهم يذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر الضعفاء... ولو أننا راجعنا أسماء الذين هاجروا لوجدناهم من أشرف قريش، من مثل: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم... بينما الضعفاء، من مثل: صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، وغيرهم لم يتركوا مكة. وهذا يعني عندي أمراً مهماً، وهو: أن النبي صلى الله عليه وسلم

أراد أن يفصل بين أكابر صحابته وبين الضغط عليهم من قبل قريش خوفا من اندلاع حرب أهلية بين القبائل، لذلك أرسلهم إلى أرض (لا يظلم فيها أحد) فباعد بين أسباب اندلاع حرب بين أهل مكة.

في المدينة المنورة

هذا الحرص على عدم إثارة حرب أهلية نجده أيضا في المدينة المنورة، فقد أخرج الإمام أبو داود في سننه في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في خبر النصير: أَنَّ كَفَّارَ قَرِيشٍ كَتَبُوا إِلَى ابْنِ أَبِي بَنٍ أَبِي سُلُوفٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَرَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ: إِنَّكُمْ أَوْيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتُقَاتِلَنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجَنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مَقَاتِلَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانَ، أَجْمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَهُمْ، فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قَرِيشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تَرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تَرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ» فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَفَرَّقُوا... اهـ. وأول ما يستوقفنا في الخبر وروده تحت باب (بني النصير) وهم من اليهود، مع أنه لا ذكر لليهود في الحديث، فغلب على ظني أن أبا داود رحمه الله تعالى أراد أن يقول: إن هذه الخطوة التي قامت بها قريش كانت بتوجيه من بني النصير، مما يعني أن مثل هذه المكائد التي تشعل الحروب الأهلية ليس اليهود ببعيدين عنها.

ثم يُنظر إلى محاولة قريش إثارة حرب أهلية بين أهل المدينة، لأنه حتماً لن يترك الأنصار من أهل المدينة ابن أبي يطرد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم الذين بايعوه في العقبة الثانية على منعه في بلدهم مما يمنعون منه أهليهم وأولادهم، وبالتالي فهذا أول اختبار لصديق البيعة، ولكن هذا الوفاء في هذا الموقع يعني الاستجابة لمكر الذين أرادوا إشعال حرب بين أبناء البلد الواحد، وهذا الذي أفهمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن أبي بن أبي سلول قبل أن يظهر نفاقه، وكان المخاطبون الأساسيون من معه من أهل المدينة، فقال لهم: (تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم) وأن ذلك مكيدة كادتكم بها قريش، لتوقع بين أهل البلد الواحد، وترتاح هي من عناء المواجهة المباشرة، نلمح ذلك في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « ما كانت تكيذكُم بأكثر مما تريدون أن تكيذكُم به أنفسكم ». ثم يُنظر إلى حكمة هذا المنافق ابن أبي سلول كيف امتنع عن القتال حتى لا يدخل المدينة بحرب دفعته إليها قريش عدوة الإسلام الأولى.

فيا ليت حكامنا يعقلون، ولا يكون هذا المنافق أوعى منهم، ويا ليت شباب المسلمين يفقهون ولا

يفتحوا مجالاً (لقريش) لتُشعل حرباً أهلية تهلك فيها القوة التي تشكل فيها خطراً حقيقياً عليها.

إن الوعي والحكمة وحسن القراءة للسير النبوية في ضوء ما تنزل من آيات القرآن الكريم، كفيلاً بأن يوجد عند المسلمين فهماً شريعياً مميزاً وطاعة لله تعالى قبل كل شيء يتولد عنها نصر مبين بإذن الله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾. وإن التسرع والتهور وخوض غمار حروب تُجر إليها جرّاً، لن يجلب على الأمة إلا الخسران، وخاصة عندما تكون غير مستعدة لذلك، وهذا ما أشار إليه راوي الحديث بقوله: «ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر». فهذا يعني أنه لم يمض على الهجرة إلا الزمن القليل، وإذا كانت معركة بدر قد حصلت، والمسلمون غير مستعدين لها، فكيف يكون حالهم قبلها؟... فإذا لا بد من تقويت الفرص على أعداء الدعوة من أن يستدرجوها إلى مقتلها، وكان الخطاب الوطني والقبلي هو المفتاح الذي استخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم لنزع الفتيل. (تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم).

وهناك مواقف أخرى نلمح فيها الحرص على عدم الاقتتال بين أبناء البلد الواحد، من مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ومن مثل مدحه لسبطه الشهيد الحسن رضي الله تعالى عنه، بقوله: «ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»، وغيرها كثير. إلا أنني أكتفي بما ذكرت لأؤكد على أن الحروب الداخلية في نظر الشريعة الإسلامية مما لا يُحمد، ومما ينبغي أن يُغلق في وجهه الباب، وأهم أسباب منعها إقامة العدل بين أبناء المجتمع الواحد حتى لا يكون ذلك سبباً لاستغلاله من قبل المتربصين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.